عهد ... وعهد

مقارنة وتعليل

للأستاذ محمد محمد المدني

لا أقارن بين عهد الأستاذ الأكبر المراغي، وعهد الأستاذ الأكبر الظواهري، فإني امرؤ مراغي بروحه وقلبه وقلمه، أخشى أن يؤثر ذلك في حكمي فأحيد عن الإنصاف!

ولكني أقارن بين عهد وعهد كلاهما للأستاذ الأكبر المراغي، وتلك مقارنة مأمونة النتيجة على كل حال، فسيرجع إليه فضل أحد العهدين مهما أخذ على الآخر!

العهد الأول

إني أعود بذاكرتي إلى العهد الأول للأستاذ الأكبر المراغي فأرى روحاً طيبة ترفرف في أجواء الأزهر: هي روح المصلح الأمين الذي وضعت فيه الأمة ثقتها، وعلق عليه المفكرون آمالهم. هي روح المصلح الجريء الذي لا تأخذه في الحق لومة لائم، ولا يصرفه عما يرى من الإصلاح اعتبار من الاعتبارات؛ هي روح المصلح الغيور على دعوته، المدافع عنها دفاع الأسد المصور يكتسح العقبات، ويقتلع العراقيل، ولا يغري فريسة أحد! هي روح قوية غلابة متوثبة إلى الإصلاح، غيورة عليه، صريحة في أمره؛ تقهر العقبات ولا تقهرها العقبات، وتتحكم في العيوب ولا تتحكم فيها العيوب!

هي روح جريئة تثير في الأزهر معركة إصلاحية جامحة حامية الوطيس هي أشبه بثورة عنيفة على الفساد في أي لون من ألوانه: على الجمود والكسل، على الجهل والتقليد، على الجحود والكفران، على الرجعية البالية العتيقة التي تتعصب على الحق، وتنفر من حكم العقل، وتعيش في ظل الأوهام!

* * *

تولى الأستاذ الأكبر المراغي مشيخة الأزهر للمرة الأولى ولم يكن قد داخل الأزهريين، ولا عاش في جوهم، ولا ابتلي بأساليبهم؛ ولكنه كان مع ذلك بصيراً بعيوب الأزهر وطرق إصلاحه كالطبيب الحاذق يعرف الداء ويصف الدواء

فما هو إلا أن ألقيت إليه مقاليده حتى مضى قدماً في طريق الإصلاح، لا يلوي على أحد، ولا يبطئ به شيء، بل كان له في ذلك نشاط عظيم، جعله يسبق القوانين أحياناً فينفذ مشروعاته قبل أن تصدر

ولقد رج الأزهر يومئذ رجة عنيفة هي الرجة التي تصاحب دائماً عهود الثورة، وتثري المصلحين بالمضي في طريقها غير ناكصين، ومن يتتبع خطواته في الإصلاح يجدها خطوات واسعة موفقة يرجع إليها الفضل من غير شك في كثير مما يتمتع به الأزهر الآن من خير؛ فقد أعد قانون الأزهر الذي يسير عليه الآن، وأعد مشروع بناء كلياته ومعاهده ومكتبته ومساكن طلابه على نمط سيكون به للأزهر إن شاء الله مدينة جامعية محترمة، وأنشأ قسم الوعظ والإرشاد ففتح بذلك للأزهر وللأمة وللدين ألواناً من الخير والصلاح ليس ينكرها أحد، ووضع أساساً جيداً لمجلة راقية — فيما كان يرجو — تصدر باسم الأزهر، فتنشر بين الناس ثقافته، وتعلن في مشكلات الحياة رأيه، وتهدي الأمة إلى أقوم السبل في دينها ودنياها، وأدخل في مناهج التعليم بالأزهر علوماً وكتباً ما كان الأزهريون من قبل يعرفونها، ورسم في كل ناحية من نواحي الإصلاح خطة جامعة جريئة؛ ونجح إلى حد ما في إصلاح نفوس الأزهريين، وفي كبح جماح العناصر الفاسدة المقاومة لفكرة الإصلاح، وفي توجيه المستعدين للعمل نحو النشاط والانتاج!

وابتدأ الحظ السعيد يبسم للأزهر، وشهد التاريخ كيف أخذت هذه الجامعة الكبرى بأسباب النهوض والتقدم، ودلفت إلى طريق المجد والعظمة؛ وآمن الناس بأن للأزهر وجوداً، وبأن في الأزهر حياة!

ولكن الزمان لم يلبث أن استدار وتجهم، كأنما تفيس هذه السعادة أن ترف على الأزهر ظلالها، فإذا الشيخ الأكبر يترك منصبه ولما يزل غرسه محتاجاً إلى التعهد والرعاية: خرج يومئذ من الأزهر خروجاً مفاجئاً لم يكن الناس يتوقعونه، ولكنهم عرفوا فيما بعد

أسبابه . وليس صحيحاً ما ذكره « عالم » فى الرسالة[1] من أن كثرة الأزهريين هى التى وقفت فى سبيله وألجأته إلى ترك منصبه ؛ فكلنا يعرف الأسباب الحقيقية التى من أجلها ترك الأستاذ الأكبر منصبه العظيم ؛ وكلنا يعرف أن الأزهريين كبارهم وصغارهم ظلت أعناقهم له خاضعين ما دام فى الأزهر ، حتى إذا اعتزل منصبه نصب عليه قوم وتصايحوا ، وأفحشوا من بعد فى القول وجاءوا بإفك عظيم !

العهد الثانى

عاد الأستاذ الأكبر المراغى إلى منصبه بعد الثورة الأزهرية المعروفة ، وترقب الناس جميعاً أن يتم من آيات الإصلاح ما بدأ ، وأن تعود إلى الأزهر روح « المراغية » القوية التى كانوا يعهدونها من قبل ، وأن تتلاحق فى كتاب الأزهر الخالد — بعد مقدمته التى كتبها فى عهده الأول — فصول مشرقة الصفحات ، واضحة الأغراض ، سليمة الأساليب والمعانى ، ولكن الأيام توالت ، والشهور تتابعت ، والأعوام تلاحقت ، ولو شئت لقلت إن حالة من الانتكاس قد أصابت الأزهر ، وأن ريحاً من رياح الفناء توشك أن تهب عليه فتعصف به ، ولكنى لا أحب أن أقول ذلك ، وإنما أحب أن التزم القصد فى التعبير فأقول : إن الناس لم يروا من الإمام المراغى ما كانوا يرقبون

هذه هى الحركة الفكرية فى الأزهر قد سكنت ريحها ، وخبت جذوتها ، وما زال الأزهر عاكفاً على كتبه يدور بها حول نفسه ، ويفنى فيها زهرة شبابه ، وينقطع بها عن الناس ، فليس له اشتراك ذو قيمة فى التشريع العملى للبلاد ، وليس له صلة محترمة بأوساط العلم والثقافة ، وليس له نشاط فى إخراج كتب علمية أو أدبية كما يخرج الناس ، وليس لمجلته أى أثر فى توجيه العقول والأفكار ، وإن كان لها أثر كبير فى تشجيع الخرافات والأوهام !

وهذه هى الحركة الدراسية فى الأزهر ، تشكو من تهاون الرؤساء وطغيان الطلاب ، وعدم قراءة المقررات ، وضعف المستوى العلمى ضعفاً يشغل البال ، ويقلق الأفكار

فما هو السر فى ذلك كله ؟

إن الذى يلى شئون الأزهر رجل مؤمن بفكرته إيماناً يداخل قلبه ويخالط نفسه ، ويملك عليه جميع مشاعره : فهو حين يخطب يدعو إلى الإصلاح ، وحين يكتب يدعو إلى الإصلاح ، وحين يدرس يدعو إلى الإصلاح ، وحين يجلس إلى الناس يدعو إلى الإصلاح ، أليس فى كل هذا دليل على أن فكرة الإصلاح قد تغلغلت فى نفسه وأثرت فى تفكيره ، ونطقت لسانه ، وأجرت قلمه ، وأنه حينما يدعو لها ، ويحض عليها ، إنما يلبى هتافاً من نفسه ، ووحياً من قلبه

ثم هو رجل لا يوزن وزانه فى العلم والفقه وجودة النظر ، له فى ذلك بحوث ومذكرات وآراء وقوانين وتوجيهات حقيق على تاريخ العلم أن يخلدها ، فليس كهؤلاء الدعاة الخلاة ، أفئدتهم هواء ، وصيحاتهم أصوات طبول جوفاء !

ثم هو رجل فى يده سلطان الأزهر ، وتحت أمرته كل شىء فيه ، والأزهر استقلال يغبط عليه لم تصل إلى مثله جامعة حديثة . وليس فى الأزهريين بحمد الله من يستطيع إذا جد الجد أن يقف على قدميه ليناوىء حركة الإصلاح !

وهو بعد هذا كله رجل ذو جاه ومنزلة بين الناس ، يتمتع بين أولى الأمر وأصحاب السلطان بما لم يتمتع به أحد سواه من رجال الإصلاح : فالحكومة تحترمه ، والشعب يقدره ، ورجال الفكر والعلم يحبونه ، وولى الأمر — حفظه الله — يتوج هذا كله بعطفه ورعايته وتكريمه ، ويفد إليه فى دروسه يحيط به رجال دولته وأفذاذ أمته !

فما ذا بقى بعد ذلك ليعطل الإصلاح ، ويحول بين هذا الرجل العظيم وبين مُتَبوَّإ فى التاريخ عظيم ؟ !

* * *

ترجع العوامل التى تحول بين الأستاذ الأكبر وبين تنفيذ برنامج الإصلاح الذى وضعه إلى نواح ثلاث :

١ — طبيعة الأزهر

(١) العدد الماضى ١٣٤ ص ٧٤١

٢ — أحوال الطلاب

٣ — السياسة العامة فى الإدارة

وليس من الخير أن نفصل كل هذه العوامل على هذا المنبر العام ، ولكننا نكتفى بالإجمال رعاية لمقتضيات الأحوال

١ — طبيعة الأزهر :

هناك نوع من الأعمال يكفى لكى ينجح المرء فيه أن يرجع إلى نفسه ، ويعتمد على ما يبذله شخصياً من جهود ، فالمؤلف يستطيع أن يكف على مراجعه ، وينقطع إلى بحوثه وتأملاته ، ويبذل من فكره وعقله ما يستطيع أن يبذل ، فينتهى به الأمر إلى أن ينتج ، أو يسير فى طريق الإنتاج شوطاً يتناسب مع عمله وجهوده .

وهناك من الأعمال ما لا بد فيه من تعاون ، ولا تكفى فيه عبقرية العبقرى ولا جهد المجتهد ، فالمعلم لا يستطيع أن يفيد بعلمه كل تلميذ ، وإنما يفيد التلميذ القابل للتعلم ، المستعد للفهم ، الآخذ بالأسباب !

ومهمة المصلح كمهمة القائد من النوع الثانى ، فكما أن القائد مهما كان شجاعاً عبقرياً محنكاً ، لا ينجح فى خططه إلا إذا أسعفه جيش له صفات ممتازة واستعداد حسن يكفلان تنفيذ خطته على الوجه الأكمل . كذلك لا ينجح المصلح فى إصلاحه إلا إذا كانت البيئة التى يعمل فى دائرتها مستعدة لتلقى تعاليمه ، غير متأبية بطبعها عليها .

والأستاذ الأكبر المراغى مصلح قد وضع خطط الإصلاح فأحسن وضعها ، ولكن طبيعة الأزهر تحتاج فى علاجها إلى صبر ومثابرة وحسن تأت وسعة حيلة ، كما تحتاج إلى انتهاز الفرص ، وبث الدعوة للأفكار الصالحة ، وخلق القدوة وضرب المثل وتشجيع العاملين ومكافأة المنتجين . وكل ذلك يفعله الأستاذ الأكبر إلا تشجيع العاملين ومكافأة المنتجين : فهو حين يدرس يضرب للأزهريين بدراسته أحسن الأمثال ، ويعلمهم كيف يكون الإخلاص للعلم والاعتماد على الدليل والبرهان ، ووزن النظريات العلمية بقيمتها الذاتية ، لا بمنزلة أصحابها والقائلين بها ؛ وهو يحسن الدعوة إلى مبادئ الإصلاح وينتهز لها الفرص ؛ وهو يصابر الأزهريين ويحتال لهم ، ولكنه لا يعمل شيئاً يشعر به العامل أنه راض عنه ، ويشعر به المهمل أنه غاضب عليه . فالأزهرى الذى يعمل ليله ونهاره ويقوم بواجبه خير قيام ، كالأزهرى النائم الغافل الذى يعمل لإرضاء الرسميات وحفظ المظاهر فقط ، بل ربما كان للثانى من سنه أو من وسائله الخاصة ما يدفعه إلى الأمام دفعاً يسبق به العاملين . وقد كان من نتائج ذلك أن خيم الكسل فى كثير من النواحى ، وقتل النشاط ، وفترت حياة الأزهر العملية فتوراً صار مضرب الأمثال !

٢ — أحوال الطلاب

عاد الأستاذ الأكبر إلى منصبه فى ظروف يعرفها الذين يتابعون حركة الأزهر ؛ وقد أوحت هذه الظروف إلى طلاب الأزهر والمعاهد الدينية أن لهم يداً فى عودة الأستاذ الأكبر إلى منصبه ، لأنهم نادوا به ، وأضربوا من أجله ، وشردوا فى سبيل ذلك وأوذوا ، فهم إذن جديرون بأن يصيبوا حظهم من المكافأة ، وجديرون بأن تغمض العيون عنهم إذ يتخففون من وطأة النظام ويحاولون الإفلات من هيمنة الرؤساء والأساتذة ؛ وقد سارت سياسة الأزهر بالنسبة إليهم فعلاً فى طريق من شأنها أن تشجعهم على هذا الفهم وتؤكده لهم ، فقد ألفوا أن يطلبوا فيجابوا إلى ما يطلبون ، وأن يذنبوا فيغفر لهم ما يذنبون ، وأن يعاقبوا ثم تقبل فيهم شفاعة الشافعين ، واستباحوا أن يذهبوا إلى الإدارة العامة فى كل صغيرة وكبيرة متخطين رؤساءهم المباشرين ، فتراهم يقتحمون مكاتبها ، ويشغلون موظفيها ، ويدخلون عليهم من أقطارها ، ويتنادون فى أبهائها صاخبين لهم فيها ضجيج وعجيج !

ومن الإنصاف أن نذكر أن هذه الحالة ليست خاصة بالأزهر وحده ، وإنما هى حالة تصطلى بنيرانها المدارس المصرية جميعاً . فكلنا يعرف كيف تدخلت السياسة الحزبية فى نظم التربية والتعليم والامتحانات تدخلاً يراد به التقرب إلى الطلاب وكسب تأييدهم ، وكيف انبثت الفوضى فى كل شىء ، وطغت على كل شىء ، فليس الأزهر وحده هو المسئول عن هذا العامل ، ولا ينبغى أن يحمل عبؤه عليه من دون معاهد التعليم جميعاً ، ولكننا فيما يظهر قد سبقنا غيرنا فى هذه الناحية وبرزنا فيها تبريزاً حتى

أصبنا منها بطعنات فى الصميم أساءت إلى النظام ، والإدارة والعلم والكتب والمقررات والامتحانات ، وإلى المستوى العلمى والخلقى إساءة فظيعة ، تحتاج إلى العمل السريع ، وإلى الحزم الصادق ، والعزائم المتكاتفة، إن كان لنا فى بقاء الأزهر حاجة !

٣ — السياسة العامة

أرجو أن يسمح لى فضيلة الأستاذ الأكبر بأن أتوجه إليه فى هذه الناحية بشىء من الصراحة ، فإن فضيلته يريد أن يسوس الأزهر سياسة قوامها إرضاء العناصر المختلفة فيه ، وإرضاء العناصر المختلفة فى الأزهر أمر بعيد المنال إن لم يكن مستحيلاً ، فإن المرء لا يجد بيئة من البيئات قد تفاوتت فى التفكير حظاً ولوناً وطابعاً كالبيئة الأزهرية ، والمصلح لا بد أن يكون جريئاً فى إصلاحه ، صريحاً فى مداواة العلل والأمراض ، وكلنا يعرف أن فى الأزهر قوماً مؤمنين بالإصلاح ، وقوماً به كافرين ، وعنه منوقين ، كما أن فيه قوماً لم يتعودوا أن يؤمنوا بشىء أو يكفروا بشىء ، فإذا كان من سياسة المصلح أن يستعين بخصوم الإصلاح ، أو بالذين لا يدركون أغراضه ، ولا ينبعثون بطبيعة نفوسهم فى طريقه ، أو لا تمكنهم أحوالهم وسنهم وتربيتهم من تطبيقه ، فإن الإصلاح من غير شك فاشل ، وأن الجهود التى تبذل فى سبيله ، والأموال التى تنفق عليه ، ضائعة !

لا ينبغى أن تسيطر ظروف السن والأقدمية والأمر الواقع على كل شىء فى الأزهر ، فيظل التعيين فى المناصب الكبرى وقفاً على الذين كلّوا من شدة الإعياء ، عن حمل الأعباء

لا ينبغى أن يغفل عند تعيين جماعة كبار العلماء ما بقى مغفلاً حتى الآن من رعاية النشاط العلمى والقدرة على الإنتاج والعمل وإقناع الناس بوجود الأزهر ؛ فقد كان الناس يعتقدون ، وحق لهم أن يعتقدوا ، أن عضوية هذه الجماعة مكافأة على طول العمر ، وتعويض للقعدة والضعفاء ، لا على الإنتاج والتأثير فى حياة الأمة

لا ينبغى أن نستعين بالذين لا يؤمنون بإصلاح ولا يدينون بمبادئه ولا يحفلون بمثل عليا ، وليس لهم فى الأزهر رسالة إلا التخزيل عن النهوض ، والتعويق عن التقدم ، بينما المتشبعون بالأفكار الإصلاحية القادرون على تحقيق مبادئها مبعدون عن تولى الأعمال الهامة لاعتبارات لا يصح أن يقام لها وزن فى نظر المصلح .

لا ينبغى أن يدخل فى توزيع الأعمال أن يندب فلان من أجل فلان ، وأن يقصى فلان من أجل فلان ، وأن يجتهد فى تمثيل البلاد والأقاليم فى كل عمل من الأعمال كأنها لجان عصبة الأمم !

لا ينبغى أن نرضى بالواقع المخجل فى مجلة كمجلة الأزهر أجمع الناس على فساد إدارتها ، وضعف مستواها ، وانحرافها عن الطريق القويم الذى تقتضيه طبيعة رسالتها ، وأنها أصبحت طريقاً من طرق التكسب والتعيش وفتح البيوت ، وهى مع ذلك محمية من أن تقع على عيوبها عين فضيلة الأستاذ الأكبر ، ومن أن تصل الشكوى منها إلى مسامعه بوسائل يعتقد الناس أنها لا ترضيه !

لا ينبغى أن يكون فى الأزهر امرؤ يضع الأستاذ الأكبر فيه ثقته ، ثم يعبث معتمداً على هذه الثقة بأمانة العلم أو العمل أو الإدارة أو النظام ؛ فإنه لا يسىء بذلك إلى نفسه فقط ولكنه يسىء أيضاً إلى من ائتمنه ووضع فيه ثقته !

سيدى الأستاذ الأكبر :

معذرة فقد استرسل القلم ، يملى عليه قلب لك مخلص وعلى عهدك غيور . فغض الطرف عما عسى أن يكون من الإسراف ، لما تنطوى عليه النفس من الإخلاص ؛ ولا تسمع فى وشاية الواشين ولا كيد الكائدين !

وفقك الله إلى ما يحبه لك أخلص محبيك

محمد محمد المدنى

المدرس بكلية الشريعة